٢ ـ الزاهـــدان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال أحمد بن مسكين : وانتشر حديثُ السمكة فى أهل بلخ) ، واستفاض بينهم ، وكنتُ قصصْتُه عليهم يوم سبت . فلما دار السبتُ من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب ، فقال : أحمد ! لكأنك فى هذه المدينة قرَّطاع بالبلر فلا يعظ الناسَ فى يوم السبت غيرك ؛ ومن سمع فكأنه عايَن ، وليس على ألسنة أهل بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل ، ولا على بال أحد منهم الا موعظتك وحديثك . والكلامُ عن الصالحين فى مثل ما وصفتَ وحكيتَ قُربٌ من حقائقهم ، وسموٌّ الى معانيهم ؛ وليس فى القول بابٌ له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله فى البشرية خلقَ النور ، يضيءُ ما حوله من حيث يُرى ، ويعمل فيما حوله من حيث لا يُرى ، وفى ظاهره الجمال والنفعة ، وفى باطنه القوةُ والحياة . ولست أقول لك اذهب فحدّث الناس ، ولكنى أقول اذهب فاعظ الناسَ مثلا من الحديث

قال ابن مسكين : فلما صلينا العصر قدمنى أبو تراب فجلست فى مجلسى ذاك ، وهتف بى الناسُ يريدون الحديث عن بشر الحافى وما سقط لى من أخباره على الطريقة التى حدثتهم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكر موته رحمه الله وأن يومَه كأنما اجتمع له أهل خمس وسبعين سنة (1) ، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح فلم يحصل فى قبره إلا فى الليل مما احتشد فى طريقه من الخلق ، حتى لكأن فى نعشه سرا من أسرار الجنة فى هذا ، فخرجوا ينظرون اليه ، وكانوا يصيحون فى جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبل شرف الآخرة

ثم قلت : حدثنى حسين المغازلى (2) أن بشراً رحمه الله كان لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاء لضرورة الحياة بالأقل الأيسر ، وكان يقول فى ذلك : يدٌ أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأىّ شىء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ فأجعلها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً فى نفسه حتى فضّل الامام أحمد بن حنبل بأشياء منها أن له أهلا ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت تمَّ نُسُكك ؛ فقال : أخاف أن تقوم الزوجةُ بحقى ولا أقوم بحقها ، فكانت هذه النية فى نفسه أفضل من زواجه

وكان مع هذا لا يؤاكل أحدا ولا يسعى إلى لقاء أحد حتى إنه لما رغب فى مؤاخاة الزاهد العظيم معروف الكرخى أرسل اليه الأسودَ بن سالم وكان صديقا لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلنى اليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة يحتسبها ويعتد بها ، إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولها أنه لا يحب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة ؛ فقال معروف : أما أنا فاذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهاراً ، وأزوره فى كل وقت ، وأوثره على نفسى فى كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بينى وبينه ولكنى أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى

قال حسين المغازلى : وكان هذا كله من أمر بشر معروفاً فى بغداد لا يجهله أحد من أهلها إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجبى حين كنت عنده يوماً وقد زاره فتح الموصلى ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلى وقال : اشترلنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب ؛ وما قال لى مثل ذلك قط ، وهو الذى رأى الفاكهة يوماً فقال : ترك هذه عبادة ؛ وهو القائل لأبى نصر الصياد : لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة (1)

---

(1) مات رحمه الله عن خمس وسبعين سنة

(2) نسبة الى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان — يعمل يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بنى اعمل بيدك فان أثره فى الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا

(1) مر هذا فى مقال (السمكة) فى العدد الماضى من الرسالة

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتخيّرت ، ثم وضعت الطعام بين أيديهما فرأيته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطاً إليه وما لى عهد كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنت أخبرته فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل علمتُه من أدريس الحداد ؛ فانه لما زالت المحنةُ بعد أن ضُرب بين يدى المتعصم وصُرف إلى بيته ، حمل إليه مال كثير من سرَوات بغداد وأهل الخير فيها ، فردَّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيراً ، وهو محتاج إلى أيسره ، وإلى الأقل من أيسره ، وإلى الشيء من أقله ، فجعل عمُّه اسحق يحسبُ ما ورد فى ذلك اليوم فكان خمسين الف دينار ، فقال له الامام : يا عم أراك مشغولا بحساب مالا يفيدك . قال : قد رددت اليوم كذا وكذا الفاً وأنت محتاج إلى حبة من دانق . فقال الامام : يا عم لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه

* * *

قال المَازنى : فنمت تلك الليلة وأنا أفكر فى صنع الشيخ وقد تعلق خاطرى به كيف انقلبت الحال معه ، وأىّ شئ هذه الحال ، وجعلت أكدُّ ذهنى لأعرف الحقيقة العقلية التى سلّطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست فى الكتب ، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ومنها ، ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فى جميعها طائل ولا بها معرفة ، حتى غلبتنى عيناى وأنا من وهج الفكر نائمٌ كالمريض وقد ثقل رأسى واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل

فرأيت أول ما رأيت ملكا جباراً يحكم مدينة عظيمة وقد أطلق المنادى فى جمع كل أطفال مدينته فجىء بهم من كل دار ، ثم رأيته قد جلس على سريره وفى يده مقراض عظيم قد اتخذه على هيئة نصلين عريضين لو وضعت بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه فى شقّ المقراض فيقرضها فاذا هى تتناثر أسرع مما يقرض المقصُّ الخيط ، ثم يرمى بالطفل مغشياً عليه ويتناول غيره فيبتر أصابعه والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كل ذلك أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمـ فيه هذا الغيظ فأقرضَ عنقه بمقراضه

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيراً ، فلما جاءت قدم الطفل بين المقراض صاح : يارب ، يارب ! فاذا المقراض يلتوى فلا يـ شيئاً وكأن فيه حجراً صلداً لا قدماً رَخْصَة . فتميز ا من الغيظ وقال من هذا الطفل ؟ فسمعت هاتفاً يهتف : هذا الحافى ! لا يبلغ تاج ملك فى الأرض أن يكون لقدمه الحافية عند الله !

وكان إلى جنبى رجل يتوضأ وجهه صلاحاً وتقوى فقلت له : من هذا الطاغية ؟ ولم اتخذ المقراض لأقدام الأط خاصة ؟

فقال : ياحسين ! ان هذا الجبار هو ذل العيش ، وهذا و لأهل الحياة على الأرض يحقق به فى الانسان معنى البهيمة أو ما يدب على الأرض حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم

قلت : فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عباداً استخصهم لنفسه ، أول علامته فيهم الذل تحت أقدامهم ، وهم يجيئون فى هذه الحياة لاثبات القد الانسانية على حكم طبيعة الشهوات التى هى نفسها طبيعة الذل فاذا اطرح أحدهم الشهوات وزهد فيها ، واستقام على ذلك عقد نية وقوة ارادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس ، ولكـ رجل قوى اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس فى معارك الطاحنة ، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم فى معارك الدامية . هذا يُتعلم منه فن وذاك يُتعلم منه فن آخر ، وكلاه يرى به على الموت لايجاد النوع المتميز من الحياة ، فأول فضائل الشعورُ بالقوة ، وآخر فضائل ايجاد القوة

* * *

قال المازنى : وضرب النوم على رأسى ضربة أخرى فاذا أ فى أرض خبيثة داخنة قد ارتفع لها دخان كثيف أسود يتضرب بعضه فى بعض ، وجعلت أرى شملا حمراً تذهب وتجىء كأنها أجسام حية ، فوقع فى وهمى أن هؤلاء هم الشياطين : ابليسُ

جنودُه وسمعتُ صارخاً يقول : يا بشرى ! فلتبك السماءُ على الأرض ، لقد أكل بشر الحافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حجرها ومدَرُها ، وذهبُها وفضتها ! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه : ويلك يا زَلَنْبور [1] ! إن هذا شر علينا من عامة نُسكه وعبادته . هذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطيقه بشر ؛ إنه إعناتٌ يسلطه على نفسه ، فإنى دفعتُ هذا (المنازلىّ) الأعمى القلب وزين له ما فعل أحمد بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً وقوةَ عزم ونفاذَ إرادة ؛ وقلت عسى أن يتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فيحسدَ أو يغار ، أو تعجبه نفسه فيكون لى من ذلك لمةٌ بقلبه فأوسوس له فإنا نأتى هؤلاء من أبواب الثواب كما نأتى غيرهم من أبواب المعاصى ، ونتورَّع مع أهل الورع كما نتسخَّف مع أهل السخف ؛ ولكن الرجل رجل وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوة على جعل شهوات نفسه أشخاصاً حية يعاديها ويقاتلها ، فإذا أنا جعلت شهوته فى اللذة قتل اللذة ، وإذا جعلتها فى الكآبة قتل الكآبة ، وليس الزاهد العابد هو الذى يتقشف ويتعفف ، ويتخفف ويتأفف ، فإن كثيراً ما تكون هذه هى أوصاف الذل والحمق ويكون لها عمل العبادة وفيها إثم المعصية ، ولكن الزاهد حقٌّ الزاهد من أدار فى الأشياء عيناً قد تملت النظر بحقه والاغضاءَ بحقه ؛ فهذا لا يخطئه معنى الشر إن لبّسناه عليه فى صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوّرناه فى صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه فى حيث شاء من المنزلة ، لا فى حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيبات إلا ليبادر بها وسوستى ويردَّنى عن نفسه وعن اللَّمة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبط أجره . فبهذه الطيبات عالج نفسه علاج مريض ، وقد غير على جوفه طعاما بطعام ، كما يبدّل على جلده ثوباً بثوب ، ولا شهوة للجلد فى أحدهما

* * *

قال المنازلى : وثقل النوم على ثقلةً أخرى فرأيتنى فى واد عظيم وفى وسطه مثل الطَّود من الحجارة قد ركِم بعضُها على بعض . ورأيتنى مع بشر أقصُّ عليه خبر احمد بن حنبل ؛ فقال انظر ويحك ؛ إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت أحمد لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر

إن المال يا بنى هو ما يعمله المال لا جوهره من الذهب والفضة ، فإذا كنت بمفازة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك فالتراب والذهب هناك سواء . والفضائل هى ذهب الآخرة ؛ فهنا تجدد بالمال دنياك التى لا تبقى أكثر من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسك التى تخلد بخلودها

ومعنى الغنى معنى ملتبسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه ، فحين ردّ احمد بن حنبل خمسين ألفا ، يكون هذا الغنى قد صحح نفسه فى هذا العمل وجهاً من التصحيح

* * *

قال حسين المنازلى : وغطّنى النوم فى أعماقه غطّةً أخرى فإذا أنا فى المسجد فى درس الامام احمد وهو يحدث بحديث النبى صلى الله عليه وسلم : إذا عظّمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبةُ الاسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حُرموا بركة الوحى . وهم أن يتكلم فى تفسيره [1] ولكنه رآنى فأمسك عنه وأقبل على فقال : ياحسين ! إذا اجتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قدر الضرورة ، فإن أكل الطيبات فقد عرضت حالٌ جعلت هذه الطيبات عنده هى قدر الضرورة . وفى هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضىُّ إلا محدودا ، فلا يكون محصوله إلا ما توى من قدر الضرورة

ولما صغُر الجزء الأرضى فى نفوس الذين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماوى فيها ، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لا تذل ولا تضعف ولا تنكسر ؛ فالآدمية كلها تنتهى إلى بعض صورهم هؤلاء الذين علَّمهم فى أعلاها

---

(١) هذا اسم بعض ولد ابليس فيما يروى ، وفى بعض النسخ التى بأيدينا انه خنزب لا زلنبور ... ...

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين